

المقدمة

نطاق البحث وتحليل المصادر:-

لم تأخذ الدراسات الخاصة بالمؤسسات التربوية في العراق جانباً كبيراً من إهتمام الباحثين، على الرغم مما قامت به تلك المؤسسات من إسهامات واضحة في مسيرة العراق العامة وعلى مختلف الصعد، وقد ركزت بعض الدراسات إهتمامها على تطور التعليم في العراق دون الخوض بدراسة البنية التحتية لتلك المؤسسات التربوية، التي يرجع الفضل لها في تخريج أجيال متعاقبة من الشباب المتعلم على مر السنوات، ولعل السبب في ذلك يعود لصعوبة البحث في هذا الميدان ولعدم توثيق أنشطة تلك المؤسسات وتطورها، وتوزع مصادر البحث على أماكن متفرقة يصعب على الباحث جمعها أو أحياناً الوصول إليها، فضلاً عن الحاجة إلى إجراء المقابلات الشخصية مع الذين كانت لهم إسهامات واضحة في تطورها من طلبة ومدرسين ومشرفين، بعضهم إنتقل إلى جوار ربه وآخرون من بقي منهم على قيد الحياة لا يتذكرون كثيراً من التفاصيل.

إن عدم الإهتمام الكافي بموضوعات من هذا النوع وإنصراف الباحثين لمعالجة الجوانب السياسية من تاريخ العراق، كانت سبباً مباشراً لإختيار هذا الموضوع. ومن خلال عملي في مجال التدريس، غمرتني الرغبة لمعرفة تاريخ التعليم الثانوي والرغبة في الوقوف على تطور أقدم مدرسة ثانوية في بغداد، بل في العراق كله، تلك هي الإعدادية المركزية (المدرسة الثانوية سابقاً).

تركز البحث في دراسة موضوع الإعدادية المركزية خلال المدة الواقعة بين عام ١٩١٩ مرحلة تأسيس الثانوية وحتى بداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩. ونظراً لأهمية تلك المدة، وكثرة الأحداث التي مر بها العراق، ومدى تأثير ذلك في واقع التعليم في العراق بشكل عام والإعدادية المركزية بشكل خاص، سواء في تطورها أو في مساهماتها في القضايا الوطنية والقومية. وكذلك في دورها المتميز في تخريج كوكة من الرجال، الذين أسهموا في بناء الدولة العراقية الحديثة.

والمساهمة في تطوير مؤسساتها، ليسدل الستار على مرحلة في غاية الأهمية، من هنا جاءت هذه المدة موضوعاً لدراسة شاملة لعرض الحقائق وتلقى الأضواء على جوانب مهمة من تاريخ تلك المدرسة.

تتألف الرسالة من مقدمة ومدخل تاريخي وأربعة فصول وخاتمة. تتناول المدخل التاريخي أوضاع التعليم الثانوي في العراق أواخر العهد العثماني الأخير منذ عام ١٨٦٩ وحتى دخول القوات البريطانية بغداد عام ١٩١٧.

كرس الفصل الأول لدراسة المسيرة التاريخية لتأسيس الإعدادية المركزية مع عرض لمراحل تطور التعليم الثانوي في العراق خلال الأعوام ١٩١٧-١٩٣٩. وسعي سلطة الإحتلال في نشر التعليم الثانوي، الذي تمثل بفتح صف ثانوي عام ١٩١٩، وعدّ البداية الحقيقية لولادة التعليم الثانوي في العراق بحسب رأي لجنة (الكشف التهذيبي) أو ما عرف بلجنة (مونرو). كما تناول الفصل واقع التعليم الثانوي في العراق خلال الحكم الوطني للأعوام ١٩٢١-١٩٣٩، مع بيان الأهمية التاريخية للثانوية، من حيث الموقع الجغرافي وما يحيط بها من مراكز حضارية مهمة ومراحل تطورها التاريخي.

خصص الفصل الثاني، لمناقشة الجوانب التعليمية من حيث تطور المناهج الدراسية والامتحانات، ومستوى التطور الحاصل فيها سواء من حيث تطبيق المناهج أو مستوى الامتحانات ونسب النجاح مع مقارنة هذه النسب مع نسب النجاح العام في ثانويات العراق.

فضلا عن ذلك إهتم هذا الفصل بدراسة الواقع التربوي في الإعدادية وشمل أوضاع المدرسين والطلبة من حيث زيادة أعداد الطلبة وزيادة أعداد المدرسين وتنوع إختصاصاتهم.

أما الفصل الثالث، فقد تناول جانب آخر وهو (المسيرة التربوية للإعدادية المركزية) وتضمن اهم النشاطات اللاصفية- الثقافية والفنية مع إستعراض لأهم اللجان التي تأسست في الثانوية في تلك المدة وأبرز الصحف والمجلات التي أصدرتها تلك اللجان، فضلا عن النشاطات الرياضية والكشفية وحتى العسكرية في الإعدادية.

ونظراً لتمييز الإعدادية المركزية من غيرها بمواقفها الوطنية والقومية في تلك المدة فقد أفردنا لذلك فصلاً مستقلاً هو الفصل الرابع، الذي جاء بعنوان (الدور الوطني والقومي لطلاب الثانوية المركزية [الإعدادية المركزية] سواء في ردود الفعل الطلابية نتيجة تدهور أوضاع البلاد بسبب سياسة الإنتداب وإنعكاساته السلبية على الواقع العام، وفرض المعاهدات الجائرة على العراق، أو في الإستياء العام من سياسة بريطانيا المعادية للامة العربية، وفي المقدمة سياستها المؤيدة للطموحات الصهيونية والمعادية للقضية الفلسطينية، الأمر الذي انعكس برود فعل سريعة عند الطلبة للتصدي لتلك السياسة الاستعمارية...

أما الخاتمة فتضمنت النتائج التي تم التوصل إليها، عن طريق تتبع مسيرة الإعدادية المركزية عبر تبني (المنهج الوصفي التحليلي) الذي يجمع بين العرض الوصفي وتحليل الوقائع والأحداث على وفق تسلسلها الزمني بغية الوقوف على دور الإعدادية المركزية في تطور العملية التربوية ومدى تأثيرها في واقع المجتمع عامة والتعليم خاصة.

تم الإستعانة في كتابة الرسالة بمجموعة متنوعة من المصادر، يأتي في مقدمتها عدد كبير من الوثائق والسجلات والأوراق الرسمية بعضها (منشور) والبعض الآخر (غير منشور) الموجودة في دار الكتب والوثائق العراقية ببغداد، وفي مقدمتها ملفات البلاط الملكي، وتقارير وزارة المعارف العراقية ووزارة الداخلية العراقية، فضلاً عن سجلات الثانوية الخاصة بدرجات الطلاب ونسب النجاح العامة للثانوية، وكذلك الأرشيف الموجود في مكتبة الإعدادية المركزية الذي يحتوي على معلومات مهمة تناولت المدرسة وطلبتها، إلا إن هناك سجلات أخرى قد تعرضت للتلغ والفقدان بسبب تقادم الزمن، وبسبب الإحتلال الأمريكي وما رافقه من نهب وتدمير وحرق.

كذلك تم الإعتماد على الوثائق الرسمية العراقية المنشورة وفي مقدمتها التقارير السنوية التي دأبت وزارة المعارف على إصدارها عن سير المعارف للأعوام ١٩٢٥-١٩٤٠ وقد أسهمت تلك التقارير في إغناء البحث بشكل واضح

بما وفرته من إحصاءات على عدد المدارس والطلبة ونتائج الإمتحانات والقوانين والأنظمة والمناهج.

كذلك تم الإعتماد على محاضر مجلس النواب العراقي في دوراته المتعددة وما طرح فيه من قضايا تتعلق بالتطور التربوي وميزانية المعارف، وكيفية النهوض بواقع التدريسات وفتح المدارس والمخصصات المرصودة للكتب والبعثات والأبنية.

ومن الوثائق التربوية المهمة التي تم الإعتماد عليها في دراسة تطور التعليم ومستوى التقدم الحاصل خلال مدة البحث (تقرير لجنة مونرو الأمريكية) الذي نشرته الحكومة العراقية سنة ١٩٣٢ تحت عنوان (لجنة الكشف التهذيبي) الذي عكس وجهة نظر المدرسة التربوية الأمريكية، الذي تبناه بعض التربويين العراقيين ورفضه آخرون.

ولعل من الوثائق المنشورة التي لا يمكن الإستغناء عن الرجوع اليها عند الكتابة في أي جانب من تاريخ العراق خلال مدة الانتداب وأقصد بها (التقارير السنوية عن إدارة العراق، والمرفوعة إلى عصبة الامم للمدة ما بين عام ١٩٢٠-١٩٣٢). وعلى الرغم من إن تلك التقارير تعبر عن وجهة النظر البريطانية، لأنها تذكر في العادة ما يعزز موقفها كدولة منتدبة وتتحاشى ذكر ما يسيئ إلى ذلك الموقف ويعرضه إلى النقد... فإن تلك الوثائق مهمة جدا لما تحتويه من معلومات وإحصاءات ودراسات عن التقدم الذي تحقق في العراق في المجالات المختلفة.

كما أعطت كتب المذكرات معلومات لا يستهان بها في معظم فصول الرسالة... على الرغم من إنها لا تخلو من عيوب لتأثر أصحابها بوجهة نظرهم الخاصة وإبتعادهم عن الحياد والموضوعية، إلا إنها وبشكل عام ذات قيمة تاريخية مهمة وشكلت في الوقت نفسه مصدراً أولياً من مصادر الدراسة، إذ ساهمت في الكشف عن بعض تفاصيل أحداث مدة البحث، ولاسيما مذكرات الطلبة الذين درسوا في الثانوية المركزية (الإعدادية المركزية) وتقلدوا مناصب مهمة في الدولة العراقية، أو الذين إشتهروا في مجال إختصاصهم في الميادين المختلفة كالطب

والتعليم والسياسة، ومن بينها على سبيل المثال لالحصر، مذكرات حسين جميل (العراق شهادة سياسية).

ومذكرات محمد حسن سلمان (صفحة من حياة محمد حسن سلمان) ومذكرات كمال السامرائي (حديث الثمانين) وخاصة الجزء الأول، ومذكرات أمين المميز (بغداد كما عرفتها).

كما إنه لا بد من الإشارة إلى مذكرات طالب مشتاق (أوراق أيامي) في جزئه الأول ولاسيما مدة توليه إدارة الثانوية المركزية في المدة الواقعة بين عامي ١٩٢٧-١٩٢٩ فقد أعطى معلومات كثيرة ومهمة عن الثانوية وتم توظيف معلومات هذه المذكرات في فصول الرسالة المختلفة.

اما المصادر الاخرى المباشرة عن موضوع التعليم فيأتي في طليعتها مجموعة مؤلفات عبد الرزاق الهلالي وهي (تأريخ التعلم في العراق في العهد العثماني ١٦٣٨-١٩١٧) و(تاريخ التعليم في العراق في عهد الإحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩٢١) و(تأريخ التعليم في العراق في عهد الإنتداب ١٩٢١-١٩٣٢).

ويدخل ضمن هذا الإطار كتاب الدكتور إبراهيم خليل أحمد (تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩-١٩٣٢) وكتاب الدكتور جميل موسى النجار (التعليم في العهد العثماني الاخير ١٨٦٩-١٩١٨) ومما لاشك فيه إن هذه المصادر تشكل رافداً مهماً في إغناء الرسالة بكثير من المعلومات والتفصيلات والأسماء والإحصاءات والنجاح والإخفاقات حيث وظفت هذه الجوانب المختلفة في معظم فصول الرسالة.

وفضلاً عن المصادر التي تناولت تاريخ التعليم في العراق في مراحل المتعددة، إستعانت الباحثة بمصادر اخرى تناولت التطورات السياسية في العراق مثل مؤلفات السيد عبد الرزاق الحسني في موسوعته عن (تأريخ الوزارات العراقية) ولاسيما الأجزاء الخمسة الاولى، وكتاب خيرى العمري (حكايات سياسية عن تأريخ العراق الحديث) الذي ضمت بعض فصوله تفاصيل وحكايات عن نشاطات الطلبة ودورهم في الحركة السياسية المناهضة للنظام القائم من جهة وللنفوذ البريطاني من جهة اخرى.

أما الرسائل الجامعية (غير المنشورة) فهي دراسات أكاديمية موثقة لا يمكن الإستغناء عنها عند الكتابة عن أي جانب عن جوانب التطورات العامة في العراق سياسية كانت أو إجتماعية أو فكرية لهذا ساهمت في دعم وتعزيز كثير من الطروحات والأفكار التي وردت في مباحث هذه الرسالة وفقراتها ولاسيما في الفصلين الثالث والرابع.

كما لا يمكن إستعراض مصادر الرسالة دون الإشارة إلى المقالات والأبحاث التي نشرت في الصحف والمجلات من اناس كانوا قد إشتغلوا في الوسط التعليمي ولهم مساهمات رائدة في هذا المجال. فقد نشروا آراءهم ومناقشاتهم في صحف مختلفة كالعراق والإستقلال والزمان والعالم العربي والبلاد مستفيدين من الحرية النسبية في النشر يومذاك، ويدخل ضمن هذا الإطار مجلة (النشرة المدرسية)... التي وثقت نشاطات الطلبة في الثانوية المركزية، خلال الثلاثينيات من القرن الماضي، وكانت معلومات هذه المجلة قد تم توظيفها في الفصل الثالث بشكل خاص.

إن الحديث عن مصادر الرسالة ومناقشتها لا يستكمل دون الإشارة إلى مجموعة من المقابلات الشخصية مع بعض مدرسي الإعدادية المركزية، ممن يمتلك رصيذاً من المعلومات وله إسهامات في نشاطاتها. ويؤسفي القول إن غياب الكثير من الأساتذة ممن إختارهم الله سبحانه وتعالى إلى جواره، أضاع الكثير من الذكريات والإنطباعات عن الحياة المدرسية، وكذلك عن الصعوبات والتعقيدات التي إعتضت مسيرتهم، لكنهم مع ذلك كانوا ينقشون في الحجر ونجحوا في المهمة التربوية التي اوكلت اليهم. وكان نتاج جهودهم الفذة تلك الثمرة من الخريجين على مر السنين ممن كان له دور مميز في تطور العراق وتقدمه في مختلف المجالات.

لقد واجهت الباحثة بمسيرة انجاز هذه الرسالة صعوبات جمة يأتي في طليعتها، تردي الأوضاع الأمنية في البلاد، وصعوبة التنقل من أجل الحصول على المصادر المهمة وكان لغلق الطرق المستمر وقطع الجسور في أكثر مناطق العاصمة وخاصة الطريق المؤدي الى الإعدادية المركزية، الأمر الذي كان يؤدي إلى ضياع الوقت دون فائدة تذكر. أما انقطاع الكهرباء المستمر وخاصة في فصل

الصيف فهو الآخر كان سببا رئيسيا في عدم تمكن الباحثة من الإستفادة من الخدمات المكتبية لبعض المكتبات المنتشرة في بغداد.

كما إن الباحثة واجهت صعوبة الحصول على المعلومات الأصلية التي تعود إلى المدرسة لأنها مفقودة من المدرسة أصلا وحتى غير متوفرة في وزارة التربية ومديرية تربية الرصافة الاولى، علما إن الكثير من السجلات قد تعرضت للتلف بسبب الأحداث التي عصفت بالعاصمة وبذلك يكون فقدان تلك المعلومات المهمة وتلك السجلات قد أسهمت في فقدان الكثير من المعلومات عن تاريخ الإعدادية المركزية، لا لأهميتها كمؤسسة تربوية فحسب بل لأنها أول ثانوية في العراق وشكلت القلب النابض لواقع التعليم في العراق.

واخيرا ادعو الله سبحانه وتعالى اكون قد وفقت في إعداد هذه الرسالة لأضع هذا الجهد المتواضع أمام لجنة المناقشة وأجد نفسي عاجزة عن شكرهم لما تجسموه من عناء قراءتها، متوخية منهم أن تسهم ملاحظاتهم القيّمة في تقويم وتصويب ما يروونه فيها من نواقص وهفوات وأن يلتمسوا لي العذر فيما وقعت فيه من اغلاط فالكمال لله وحده، وفوق كل ذي علم عليم.

الباحثة